**المحاضرة 7 : اندماج الآفاق :**

إنّ القارئ في لقائه مع النصّ يُفعّلُ فهمه المسبق الذي يشمل التوقّعات المجسّدة ، التي لها علاقة بأفق غاياته و رغباته و احتياجاته و تجاربه ، كما يحدّدها طبعا المجتمع أو الطبقة التي هو جزء فيها ، أو التي يحدّدها تاريخه الشخصي ، و يمكن أن نشير هنا إلى التجربة المعاشة كما صاغها ديلثي ضمن الوعي التاريخي : (( ...يرى ديلثي أيضا ، بأنّ الوعي التاريخي هو حلّ لمشكلة الحقيقة )) [[1]](#footnote-1)( 147 ) ، و بالتالي فإنّ لقاء القارئ مع النصّ يترجم لقاء أفقين مندمجين ، أفق الفهم المسبق للقارئ ، الذي يتضمن استعداده و مناخه الفكري و النفسي ، و أفق المناخ الأدبي للعمل الذي يتضمن شكله و معاييره و أدواته الفنّية و اللسانية . إنّ اندماج هذين الأفقين ، يقول ياوس : (( يمكن أن يتفعّل بصورة عفوية داخل متعة التوقّعات التي أجاب عليها العمل ، و داخل التحرر من الأعباء و الرتابة اليومية ، و داخل التماهي الذي قبِلَ به القارئ كما كان مقترحا من طرف العمل )) [[2]](#footnote-2)( 148 ) . غيرأنّ هذا الاندماج يمكنه أن يأخذ منحى عكسيا ، حيث يمكن أن تتفعّل الملكة النقدية لدى القارئ ، أو حين يتمّ دحض هذا التوقّع من طرف العمل ، و هنا يمكن للقارئ أن يقبل أو أن يرفض دمج التجربة الأدبية الجديدة في أفق تجربته الخاصة .

لقد أراد ياوس أن يعيد لتجربة القارئ فعاليتها مع النصّ ، و دورها في تشكيل مسيرة تاريخ الأدب ضمن مفهوم أفق التوقّع ، إذ ليس العمل الأدبي طاقة فنّية أو أدبية متمكّنة يمكنها أن تقول كلّ شيء متى شاءت و أينما شاءت ، و بهذا التصوّر فإنّ العمل يعرض مضمونه و شكله بدرجة واحدة مع كلّ تجربة و في كلّ عصر ؛ بل إنّ تجربة القارئ هي الطاقة الموازية لتفعيل هذا العمل ، و استنطاقه بما يفتح المجال لاندماج الأفقين ، أفق العمل و أفق القارئ ، و بالتالي لقاء العالم الفنّي و الأدبي مع العالم الواقعي ( التاريخي أو اليومي ) .

هذه أهمّ المفاهيم التي عرضها ياوس حول فكرة أفق التوقّع ، و إن كنا لم نقف على الكثير من جزئياتها التي تتقاطع فيها أراء ياوس مع أطروحات النظريات الفكرية و الفلسفية الأخرى [[3]](#footnote-3)( \*\* )، ذلك أنّ ياوس ، كما يقول هولب : (( و المشكلة في استخدام ياوس لمصطلح الأفق هي أنّه عرّفه تعريفا غامضا للغاية (...) و الواقع أنّ ياوس لم يحدّد على وجه الدقّة في أيّ موضع ما يعنيه هذا المصطلح عنده )) [[4]](#footnote-4)( 149 ) .

إنّنا نروم ، في ظلّ هذه الأطروحة النظرية الذي تناولت أفق التوقع كمفهوم و كآلية نقدية ، تقريب جملة العناصر و الصياغات النظرية ، التي تمّ عرضها و توضيحها ، من المنظومة النقدية العربية ، التي تناولت إحدى أكبر المدوّنات الشعرية عبر تاريخها ، مُمثّلة في ديوان أبي الطيّب المتنبّي ، فلقد كان لشعر هذا الرجل الذي ملأ الدنيا و شغل الناس مصوغاته الفنّية و الفكرية لظهور مشروع نقدي يمتد في تاريخه من القرن الرابع الهجري إلى غاية إنجازات هذا القرن ، ممّا شكّل لدى هذه المنظومة النقدية مسارا يصل بين الماضي و الحاضر ، و يكشف عن تـاريخ من الشروح و الدراسات النقدية التي حـامت حول حمـى المتنبي ، و راحت تسبر أغوار الحقـائق الفنّية و التـاريخية التي أفرزتها سلسلة المنظورات ، من خلفيات أيديولوجية و مرجعيـات فكرية و قومية تنمّ عن موقف رافع أو واضع ، مستحسن أو مستهجن .

لقد كان لشعر المتنبي ، خلال فترة معتبرة من فترات تاريخ الأدب العربي ، بصماته الواضحة في تفعيل الحركة الأدبية و النقدية التي تناولته بين شرح و دراسة ، بل لم يكن لشعر آخرغير شعر المتنبي الحظ من هذه الحركة مثل ما حظي به شعر هذا الرجل ، حتى غدا أنموذجا إبداعيا و رائعة من روائع الشعر العربي لا يمكن تجاوزها قراءة و نقدا ، بل إنّ المتنبّي أصبح ضمن الأنساق الثقافية و الفكرية التي أسّست للوعي و العقل العربيين طيلة هذا التاريخ ، و ظلّ رمزا تاريخيا حاضرا يتجدّد بتجدّد العصور و الثقافات في الأوساط العربية ، يقول الغذامي : (( و لن نجد أكثر من المتنبّي تمثيلا لروح الخطاب النسقي )) [[5]](#footnote-5)( 150 ) ، فهو الآن جزء من المرجعيات التي شكّلت الشخصية الأدبية عبر مراحل تكوّنها تاريخيا .

إنّ عددا كبيرا من الأسئلة يحاول ، في ظلّ ما عرضناه ضمن مفهوم أفق التوقّع ، أن يجد للمتنبي و لشعره موضعه الأدبي و التاريخي من خلال معاينة سلسلة كبيرة من الاستقبالات ، التي تناولته شرحا و دراسة و نقدا ، و أوّل هذه الأسئلة هو : بأي أفق تمّ تلقي شعر المتنبي ؟ و بأيّ الآفاق كان المتنبي يعرض هذا الشعر ؟ لماذا بقي هذا الشاعر يُذكر مع كلّ الأزمنة فملأ الدنيا و شغل الناس ؟ ثمّ هل نتلقى هذا الشعر بأفقنا نحن أم بأفق الجمهور الأول الذي ظهر لحظة ظهور هذا الشعر ؟ ما معنى أن يكون شعر المتنبي حلقة واصلة بين الماضي و الحاضر ، فيصبح التراث صوتا متكلّما فينا ؟

إنّ ما يروم البحث تقصيه عبر فصوله التالية هو مشروعية هذه الأسئلة و حقيقتها ضمن الواقع النقدي الذي يمتد من التراث إلى حدود الزمن الحاضر ، و ليس البحث و الدراسة الموضوعية في حقيقتهما إلاّ معادلة تمتد من حدود السؤال إلى حدود الإجابة على هذا السؤال ، و ما شعر المتنبي إلاّ سؤالا تمتد إجابته عبر مرحلة تاريخية بأكملها ، و ضمن سلسلة من التلقيات التي يمثّلها الوعي التاريخي .

1. ( 147 ) - J . Grondin ; La Solution De Dilthey Au Probléme Du Relativisme Historique ,p 473 . [↑](#footnote-ref-1)
2. ( 148 ) - IBID , p 259 . [↑](#footnote-ref-2)
3. ( \*\* ) - في ظلّ تقاطع أطروحة ياوس مع النظريات الفكرية و الأطروحات الفلسفية الأخرى ، نفتح مجالا للإشارة إلى أنّنا وجدنا الكاتب العربي طه حسين قد ضمّن كتابه ( في الأدب الجاهلي ) سنة 1927 بعض الأفكار حول تاريخ الأدب بداخل المحور الذي تناول فيه : ( مقاييس التاريخ الأدبي ) . و كأنّنا نجده في هذه الأفكار يتقاطع مع أطروحة ياوس حول تاريخ الأدب ، خصوصا حول ما يرتبط بـ : منطق السؤال و الجواب La Logique question reponse ، و كيف يجب على الباحث في تاريخ الأدب أن يعيد طرح الأسئلة التي جاء العمل الأدبي ليجيب عليها ، ثمّ ما يرتبط بأثر العمل الأدبي في معاصريه ، ثمّ علاقة هذا العمل بالأعمال الأدبية المزامنة له ، و كيف يجب النظر إليه في ظلّ ما يُعرف عن بيئته و جنسه الذي ينتمي إليه ، يقول طه حسين في مواضع متفرّقة من مقاله هذا : (( و أمر التاريخ الأدبي الآن كأمر هذه الفنون البيانية ، لم يتكلّف الباحث درس حياة امرئ القيس و قراءة ديوانه و الجدّ في فهمه ، و هو يعلم أنّ اسمه حندج بن حجر ، و أنّ أباه كان ملكا قتله بنو أسد ، و أنّه ذهب إلى قسطنطينية ، و أنّه صاحب ( قفا نبكِ ) و ( ألا عِم صباحا أيّها الطلل البالي ) . و لكن ما ( قفا نبكِ ) هذه ؟ و ما ( ألا عِم صباحا ) ؟ ما موضوعهما ؟ ما أسلوبهما ؟ ما قيمتهما الفنّية ؟ ما مكانتهما من الشّعر المعاصر لهما ؟ ما مكانتهما من الشّعر الذي جاء بعدهما ؟ ما الصّلة التي بينهما و بين نفس الشاعر ؟ ما الصلة بينهما و بين نفوس النّاس الذين قيلتا بينهم ؟ )) ص 41 . ثمّ يقول في موضع آخر : (( و ربّما يفرغ رجل آخر للبحث عن شخصية كاتب أو شاعر أو عالم ، فيسلك إلى ذلك سبلا مختلفة ، يلتمس شاعره أو كاتبه أو عالمه فيما ترك من الآثار ، و يلتمسه في آثار غيره من المعاصرين له ، و يلتمسه في آثار غيره من الذين جاءوا بعده ، بل يلتمسه أحيانا في آثار مزاجه و طبعه ، ثمّ يجتهد في تحقيق الصّلة بينه و بين عصره و بيئته و جنسه )) ص ص 51 . 52 . و يقول أيضا حول فكرة اندماج أفق الباحث ( المؤّرخ الأدبي ) مع أفق النصوص الأدبية الماضية : (( لا سبيل إذن إلى أن يبرأ مؤرّخ الأدب من شخصيته و ذوقه ، و هذا نفسه كافٍ في أن يحول بين تاريخ الأدب و بين أن يكون علما )) ص 47 . من كتاب ، طه حسين : في الأدب الجاهلي ، ط 16 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1989 . [↑](#footnote-ref-3)
4. ( 149 ) - نظرية التلقي ، ص 155 . [↑](#footnote-ref-4)
5. ( 150 ) - عبد الله الغذامي : النقد الثقافي ( قراءة في الأنساق الثقافية العربية ) ، ط 1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2000 ، ص 167 . [↑](#footnote-ref-5)